دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد 33، العدد 1، 2006

تأثير علم الفقه في البحث والتأليف الفلاحي عند الأندلسيين

مصطفى عبد القادر غنيمات *

ملخـص

يتجاوز هذا البحث النظرة التاريخية لعلم الفلاحة في الثقافة العربية الإسلامية إلى النظر إليه عند الأندلسيين في تجدده وتطوره لمعرفة أساليب مواجهتهم للمسائل الفلاحية والتفكير فيها، والتركيز على البعد الإبستيمولوجي رؤية ومنهجية وأدوات ذهنية، والتأثير الذي أحدثه علم الفقه في هذا اللون العلمي.

إن علماء الفلاحة في الأندلس علماء في الفقه أيضا، الأمر الذي يسمح لنا بمد خطوط الاتصال بين علمي الفقه والفلاحة داخل البنية الفكرية العامة في الأندلس في ضوء ما تعكسه لنا مؤلفاتهم من قدرة على تطويع مفردات اللغة العربية وجعلها تحمل مضامين فلاحية تستند إلى رؤية وضعية تتأسس عليها منهجيتهم العلمية، إضافة إلى نقل كثير من المصطلحات والأساليب الفقهية إلى ميدان البحث والتأليف الفلاحي مما سيطلعنا عليه هذا البحث.

الكلمات الدالة: علم الفقه، التأليف الفلاحي.

المقدمـــة

تتمحور هذه الدراسة حول العلاقة بين الفقه والفلاحة عند الأندلسيين من منظور إبستيمولوجي من جهة، وتطويع مفردات اللغة العربية لتحمل مضامين فلاحية من جهة ثانية. فلقد بحث الأندلسيون في الفلاحة بحثا متجددا ومتعمقا، حيث انطلقوا من رؤية وضعية للكون وظواهره من جهة وللمسائل الفلاحية من جهة ثانية، واستخدموا منهجية علمية مستندة إلى هذه الرؤية، وميزوا داخل الفلاحة بين ما هو علم وفن. فعندما كانوا يتحدثون عن الجانب النظري من الفلاحة، المستند إلى الدراسة والبحث والمقارنة والاستنتاج كانوا يسمون ذلك علما. وعندما كانوا يتحدثون عن مسألة فلاحية تتعلق بتنسيق الحدائق، وتركيب الأشجار وتقليمها، كانوا يستخدمون مصطلح "فن الفلاحة".

وهذا التمييز يأتي منسجما مع الاصطلاحات المعاصرة التي تجعل الفن هو الجانب العملي من العلم.

واستبعد الأندلسيون الباحثون في الفلاحة من دوائر اهتماماتهم التطبيقات الطبية والغذائية للنباتات من ناحية، والخصائص النباتية المحضة من ناحية أخرى، تاركين ذلك للمختصين من علماء الصيدلة والطب والنبات.

ولقد جاء هذا البحث يتجاوز النظرة التاريخية لعلم الفلاحة سواء في الثقافة العربية الإسلامية أو عند الأوائل، إلى النظر إلى التراث العلمي الفلاحي عند الأندلسيين في تاريخيته، أي في تجدده وتطوره، للوقوف على أساليب مواجهتهم للمسائل والمشكلات الفلاحية والتفكير فيها مع التركيز وبكيفية خاصة على البعد الإبستيمولوجي، رؤية ومنهجية وأدوات ذهنية، الذي يعكس طابع الأصالة في أبحاثهم وتآليفهم من جهة والتأثير الذي مارسه الفقه في هذا اللون العلمي من جهة ثانية.

المدرسة الفلاحية في الأندلس

شهدت الأندلس خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين ظهور مدرسة فلاحية، وكان ابن وافد – أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد، ت 467 هـ – أحد روادها، وقد كلفه المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة بغرس جنته المشهورة والعناية بها، فكانت مناسبة لإجراء تجاربه الزراعية، وفي هذا المعنى يقول بيبكروسا: "وقد كانت في الحقيقة حديقة نباتية غرست لتجربة بعض النباتات وتعويدها على المناخ"[(1)]. وكان المأمون مهتما بشؤون الفلاحة، مولعا بالأزهار والرياحين، إضافة إلى هيام ابن وافد بالنباتات[(2)].

وخلال القرن الخامس الهجري ظهر العالم الفلاحي أبو عمر أحمد بن محمد بن حجاج الإشبيلي الذي درس العلوم الدينية والعربية فكان الفقيه والمحدث في زمنه، والشاعر

---

* كلية الآداب، جامعة الإسراء، عمان، الاردن. تاريخ استلام البحث 2004/10/5، وتاريخ قبوله 2005/3/7.

والناثر، والمتقن للغات اليونانية والرومانية والنبطية، يتضح ذلك من خلال مصادره التي يشير إليها في كتابه "المقنع في الفلاحة" الذي ألفه عام 464 هـ[3]. تنقل ابن حجاج بين مدينتي طليطلة وإشبيلية، وفي أثناء وجودة بطليطلة التقى ابن وافد، وتبادل معه خبراته ومعارفه الفلاحية، وتصفه بعض المصادر بأنه "بحر علوم وسابق ميدان منثور ومنظوم"[4].

وكان ابن بصال – أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأندلسي – من أبرز رواد المدرسة الفلاحية، عاش في طليطلة زمن المأمون بن ذي النون الذي كلفه بالعمل في حديقته إلى جانب ابن وافد، فكان عمله فيها مناسبة لتكوينه الفلاحي. غادر طليطلة بعد سقوطها في يد الإسبان عام 478 هـ إلى إشبيلية، ثم عهد إليه بالإشراف على بساتين بني عباد، "وكانت تنافس في روعتها بساتين بني ذي النون"[5]. وقد ألف كتابا هاما في الفلاحة جعل عنوانه "القصد والبيان".

ومن علماء المدرسة الفلاحية الطغنري – أبو عبد الله محمد بن مالك – كان حيا أواخر القرن الخامس الهجري، وألف كتابه الفلاحي "زهر البستان ونزهة الأذهان" وأهداه للأمير أبي طاهر تميم بن يوسف بن تاشفين، حاكم غرناطة[6].

وكان أبو الخير الإشبيلي[7] أحد رواد هذه المدرسة أيضا، وقد ألف كتابه في الفلاحة، وطبع هذا الكتاب في فاس عام 1358 هـ إضافة إلى كتاب له في النبات جعل عنوانه "عمدة الطبيب في معرفة النبات"[8]، حققه وقدم له محمد العربي الخطابي.

وتمتد سلسلة هؤلاء العلماء لتتصل بأبي زكريا يحيى بن العوام الإشبيلي – القرن السادس الهجري – صاحب كتاب الفلاحة الأندلسية الذي يعتبر بحق موسوعة فلاحية.

وكانت تجري بين هؤلاء العلماء لقاءات ومداولات، يتبادلون الخبرات والمعارف، الشيء الذي يسمح لنا بالقول إن هناك مدرسة فلاحية شهدت الأندلس ظهورها في عهد ملوك الطوائف.

والظاهرة الفريدة التي نجدها خلال ذلك العهد أن الأندلس كان في وضعية سياسية متردية يقابلها تحليق سامق في شتى ميادين المعرفة العلمية، وكانت الفلاحة إحدى ألوان الفكر العلمي في الأندلس.

ولقد أطلعتنا مصادر هذا البحث ومراجعه على أن أبا الخير الإشبيلي والحاج الغرناطي قد أفادا من ابن بصال، ونقلا عنه في مؤلفيهما، كما نقل عنه أبو زكريا يحيى بن العوام الإشبيلي في موسوعته الفلاحية، مما يسمح لنا بالقول إن ابن بصال كان أستاذا لشخصيات علمية فلاحية في الأندلس، حيث شهد علم الفلاحة على يديه نقلة نوعية على صعيد البحث والتأليف.

وكان هؤلاء العلماء فقهاء وعلماء في النحو، لكن المصادر لم تمدنا بمعلومات حول تآليف لهم في ميداني الفقه والنحو، إلا أن القراءة المتعمقة لمؤلفاتهم الفلاحية تعكس لنا ذلك، الشيء الذي يسمح لنا بمد خطوط رابطة بين علمي الفقه والفلاحة.

تأثير علم الفقه في البحث والتأليف الفلاحي

عندما يتحدث ابن بصال عن الوضعية التي تكون عندها الأرض غير صالحة للزراعة والغراسة إنما يؤكد على أن جميع ما يزرع فيها يموت، ومن ثم يطلق عليها مصطلح "الأرض الموات" مشيرا إلى العلامات التي يمكن الاستدلال بها على ذلك، فيقول: "إذا نظرت إليها عند الحرث فرأيت أرضها تنقطع مدرا عظيما من أول الخط إلى آخره، متصلة بعضها ببعض، لا صغار معها، فهذه الأرض موات لا خير فيها ولا بركة بوجه، وإنما سميناها عند ذلك مواتا لأن ما يزرع فيها يموت، ولا يصلح لشيء من الزراعة ولا الغراسة..."[9]. وإذا كانت الأرض على هذه الحال فإنه لا ينصح بحرثها حتى تجف أو تخف.

وما من شك في أن القراءة المتعمقة لكتاب ابن بصال إنما تعكس لنا على الصعيد الإبستيمولوجي الدقة والقدرة عنده في تطويع مفردات اللغة العربية، وجعلها تحمل مضامين معرفية فلاحية استنادا إلى رؤية واقعية تتأسس عليها منهجية علمية في التعامل مع المسائل الفلاحية، كما يعكس كتابه دقة وأصالة المصطلحات العلمية الجديدة التي اشتمل عليها، الشيء الذي يعني أننا إزاء منطق علمي متماسك يؤسس عليه ابن بصال أبحاثه وتجاربه.

فعندما يصف أحوال الأرض عند حرثها يستند إلى نظام منطقي ينقلنا من وضعية الأرض السليمة إلى بدء مرضها، ثم حالة كونها مريضة، فالأرض الموات. ومعلوم أن هناك قواعد عملية وضعت في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم تتعلق بالأرض الموات، فقد ورد في الحديث الشريف "من أحيا أرضا ميتة فهي له"[10]. وقد حدد الفقهاء مصطلح "الأرض الموات" وبينوا حكمها. فالأرض الموات هي التي لم تزرع، ولم تكن تحت تصرف أحد من قبل، ولا مرعى، ولا محتطب، ولا فيئا لأهل القرية، فمن أحياها فهي له ولورثته، وله حق التصرف في بيعها.

واستخدم ابن بصال هذا المصطلح ووظفه في أبحاثه الفلاحية، فنقله من ميدان الفقه إلى ميدان الفلاحة، وأطلقه

على الأرض التي لا تصلح للزراعة والغراسة، مستدلا على ذلك بعلامات يعكسها النص السابق، مما يعني وجود ارتباط واضح بين علمي الفقه والفلاحة في الثقافة العربية الإسلامية.

وإذا كان علماء الفقه قد استخدموا أسلوب الحيلة في أبحاثهم فإن ابن بصال قد استطاع توظيف هذا الأسلوب في أبحاثه وتجاربه الفلاحية. إن استخدامه للوسائط في إطار ما سماه "الحيلة" قد فتح أمامه آفاقا واسعة سواء في ميدان تركيب مختلف أنواع الأشجار أو في الزراعة والغراسة، فنبات القرع بحاجة إلى ماء كثير حتى "ينجب"، لكنه وباستخدام أسلوب الحيلة يمكن زراعته بعلا باستخدام "واسطة" وذلك بعمل حفرة في المكان المراد زراعة القرع فيه، بحيث يكون عمق كل حفرة منها نحو الشبر، ثم يؤتى بالبصل البري الذي يعرف ببصل الخنزير – وهو الواسطة هنا – ويقطع الورق الذي يعلو كل بصلة، ثم تشق من أعلاها إلى أربعة أجزاء، بحيث يكون الشق منتهيا عند نصف البصلة أو تحته قليلا، ثم يجعل في كل ربع من أرباع البصلة التي شققت حبة من زريعة القرع، بحيث يكون في كل بصلة منها أربع حبات، وتكون أطراف الحب المحددة مما يلي الهواء "ثم ترد البصلة في هذه الحفرة التي صنعت كما كانت مغروسة أول مرة، ويرد حولها التراب، وتغطيها به تغطية خفيفة، وتسقيها بالماء ذلك الوقت، وتتركها حتى ينبت الحب في تلك البصلة، ويظهر ويخضر ويتنعم ويطعم"[11].

واستخدم ابن بصال أسلوب الحيلة لجعل نباتات الورد تزهر مرتين في العام، إحداهما في فصل الربيع، والأخرى في فصل الخريف. ولنستمع إليه يحدثنا عن ذلك قائلا: "وقد يحتال للورد حتى يطعم مرتين في العام، في الربيع والخريف. ووجه العمل فيه أن تعطشه طول مدة الحر كله، ولا تدخل عليه من الماء قليلا ولا كثيرا. فإذا كان في أول غشت سقي بالماء وأكثر عليه مرة بعد أخرى، فإنه يلقح لقحا جيدا، ويصير في ذلك اللقح ورد، ويأتي وقته في شهر أكتوبر..."[12].

وحين يتحدث عن موضوع اختيار الأرض وإصلاحها نجده يميز بين ثلاثة أنواع؛ "بور" لا تصلح للزراعة حتى تحرك بالقليب أو بالتسميد لأنها "أرض راقدة هامدة"، و"معمور" أي أرض سبق أن زرعت بأحد المحاصيل، ثم حصد، فبقيت مخلفاته فيها، وهي أفضل من الأولى. والنوع الثالث هو "القليب" أفضل الأنواع؛ إذ لا شيء يعدل القليب لا السماد ولا غيره. فقد ذكرنا "علة" ذلك، وهو بين لا يخفى إلا عند الضعفاء من أهل الفلاحة"[13].

وإذا كان ابن بصال يحرص على تعليل الظواهر التي يبحثها، فهو في الوقت نفسه يحرص على أن يعرف المصطلحات الجديدة التي يستخدمها.

فالقليب هو حرث الأرض ورد أعلاها أسفلها أربع مرات ابتداء من أواسط يناير إلى أوائل يونيو، وهذا العمل "يلين الأرض، ويرقق بشرتها، ويعمل على امتزاج بعضها ببعض، وتتفتح مسامها، ويتخللها الهواء..."[14]. وإذن ففعل القليب في الأرض أمر واضح للباحثين الذين يستندون إلى المشاهدة والتجربة والممارسة، وهؤلاء هم العلماء من أهل الفلاحة، ولكنه يخفى على أولئك الذين يركنون إلى الأخبار والحكايات التي تناقلتها الكتب الفلاحية السابقة، ورواها الخلف عن السلف دون أن يكلفوا أنفسهم امتحان ما ينقل إليهم، وهؤلاء هم الذين يصفهم بـ "الضعفاء من أهل الفلاحة".

وإذا كان السماد – وهنا يعني به الزبل – لا يعدل القليب في تأثيره على الأرض، فإن استخدام السماد الأخضر – أي دفن أو طمر إحدى نباتات الحبوب القرينة في الأرض عندما تكون في طور الاخضرار – يصلحها ويجودها، ويكون لها بمنزلة القليب، ويذكر نباتات الفول والكرسنة والترمس ولا يفعل الحمص ذلك"[15].

كما يؤكد ابن حجاج الإشبيلي أن "القطاني تطيب الأرض لقصر أصولها" وأن "الترمس بمنزلة الزبل"[16].

وعندما يتحدث أبو الخير الإشبيلي عن موعد الغراسة يذكر أن ما غرس في زمن الخريف يزيد لقحه وقوته على ما غرس في غير الخريف بزيادة يتبين للناظر ذلك منها، ومن ثم فالغراسة في زمن الخريف أحسن وتكون منزلتها على طريق المثل بمنزلة الولد التام الذي يولد لتسعة أشهر، فإنه يكون قويا في أفعاله كلها، وما غرس في النصف من فبراير أو في أول مارس، فإنه يكون بمنزلة الولد غير التام الذي يولد لسبعة أشهر، تراه ضعيفا في أفعاله كلها، وربما هلك قبل إدراكه"[17].

وينقل أبو زكريا الإشبيلي عن ابن حجاج قوله إن "أول مراتب علم الفلاحة هو معرفة الأرض، وميزها، وعلم جيدها من دنيها، ومن لا يعلم ذلك فقد أضاع الأصل، واستحق في هذه الصناعة اسم الجهل"[18].

يتضح من النصوص السابقة لجوء علماء المدرسة الفلاحية الأندلسية إلى التمثيل أو "قياس المثل" لتوضيح الظاهرة التي يتحدثون عنها من ناحية وللتأكيد على صحة تعليلهم لها من ناحية ثانية.

كما ان وصف "الجهلاء" من أصحاب الفلاحة في نظر ابن العوام وابن حجاج، والضعفاء منهم بتعبير ابن بصال إنما يعكس وعي بل وحرص هؤلاء العلماء على التمييز داخل

الفلاحة بين ما هو نظري وعملي أو بين ما هو علم وفن. وهذا ما يؤكده أبو الخير الإشبيلي بقوله إن الفلاحة "علم وزين ونعمة من الله وأجر عظيم"[19].

وحين يتحدث أبو زكريا عن الموضوعات التي تناولها في مؤلفه نجده يخاطب العالم الباحث، وفي الوقت نفسه يكتب للمزارع الذي ما ان نظر في كتابه وحفظ أبوابه وفصوله ومعانيه من يريد أن يتخذ هذا الفن صنعة يصل بها بحول الله إلى معاشه، ويستعين بها على قوته وقوت عياله وأطفاله، وجد فيه حاجته، وبلغ إرادته، واستعان بذلك على منافع دنياه، ومصالح أخراه بتوفيق الله إياه؛ إذ بالغراسات والزراعات تكثر بمشيئة الله الأقوات"[20].

إن التركيز على الجانب التطبيقي للفلاحة يندرج في إطار السمة الواقعية العملية التي تميزت بها الحضارة العربية الإسلامية.

وهكذا نجد ابن العوام يستشهد بأحاديث وردت عن الرسول صلى الله عليه وسلم ترغب في الزراعة والغراسة وتحث عليها، ومنها قوله: "من غرس غرسا أو زرع زرعا فأكل منه إنسان أو طائر أو سبع كان له به صدقة"، وقوله صلى الله عليه وسلم أيضا: "من غرس غرسا فأثمر أعطاه الله من الأجر بقدر ما يخرج من الثمر"[21].

وحين يحدثنا ابن حجاج عن الأوقات التي يكسح فيها الفلاحون كرومهم في الأندلس فإنه يجملها بقوله: "والكروم عندنا تكسح في كانون الأول وكانون الآخر وشباط وآذار..."[22]، ثم يقارن بين عملية الكسح في كانون الأول وكانون الآخر من جهة والكسح في آذار من جهة ثانية ليقرر في ضوء ذلك أفضل الأوقات لهذه العملية.

وهو إذ يمتدح الكسح[23] في كانون الأول وكانون الآخر إنما يعلل ذلك بما يترتب عليه من تخفيف عن الكروم من ناحية "ولأن الماء لم يجر في الغصون" من ناحية ثانية. إلا أن المضرة المتوقعة في هذا الوقت هي... إفساد الجليد والصر لها عند نضارتها..." ولهذا يتحاماه كثير من الناس، ثم يستدرك قائلا: "إن لم يكن يؤذي البرد في ذلك العام، كان ذلك أفضل للكرم". لكن هناك من ذم الكسح في آذار بسبب "قطر الرطوبة"[24].

إن الممارسة العملية والتجربة الشخصية لابن حجاج في ميدان الفلاحة جعلته يقرر أن أفضل الأوقات لكسح الكروم هو شهر شباط – الوقت الوسط – حيث يتحقق عنده جلب المصلحة للمزارع ولكرمه، وتدفع عن كرمه المضرتان المشار إليهما آنفا، حيث يقول: "لأنه أمنت فيه المضرتان"[25].

وإذن، نحن إزاء قاعدة فقهية، جلب المصلحة ودفع المضرة، ينقلها الفقيه والعالم في اللغة من ميدان الفقه إلى ميدان الفلاحة. ومعلوم أن هذه القاعدة يتأسس عليها اجتهاد الفقهاء؛ إذ انه من المتفق عليه بين جمهور علماء المسلمين أن الله سبحانه وتعالى ما شرع حكما إلا لمصلحة عباده، وأن هذه المصلحة إما جلب منفعة لهم، أو دفع مضرة عنهم. فالباعث على تشريع أي حكم شرعي هو جلب منفعة للناس، أو دفع ضرر عنهم. وهذا الباعث على تشريع الحكم هو الغاية المقصودة من تشريعه، وهو حكمة الحكم أو فلسفة الحكم الشرعي[26].

ويبين ابن حجاج الغرض المقصود في الكسح "أن تصير الجفنة من الكرم ذات قرون معتدلة في الانفراج، لا يخالف بعضها بعضا، معتدلة في الطول، معتدلة بين الانخفاض والارتفاع، متساوية في سطح واحد، بل كل واحد منها مواز لصاحبه، فلا يكون بعضها منخفضا إلى أسفل، والآخر أعلى منه"[27].

وكثيرا ما يلجأ عالمنا هذا إلى أسلوب التمثيل لتوضيح الفكرة أو المبدأ الذي يتكلم عنه، فيقول متابعا حديثه السابق "وأن تكون الجفنة على مثال أصابع الكف، إذا فتحت وفرج ما بينها وأقيمت قليلاً[28]".

وهو إذ يمتدح أهل طليطلة في كسح الكروم القصار غير المعروشة فيأخذ منهم جل معارفه في ذلك، يؤكد على أنه لم يعتمد على أقوال الأوائل من المؤلفين في الفلاحة؛ إذ لم يذكروا شيئا فيه، ولكنه اعتمد "في أكثر من ذلك على آراء أهل طليطلة، إذ اتفق الناس على أنهم أعلم القوم بصنع الكسح"[29].

أما المصدر الآخر لمعارفه في الكسح فيتعلق بـ "الحذاق من أهل إشبيلية، حيث يقول: "ثم لقيت من أهل بلادي جماعة من الحذاق بهذا الشأن، أخذوا عن الشيوخ المحكمين، فنخلت أقوالهم كلها، وربطت الصناعة إلى قانون محكم منتظم".

ومن المبادئ التي يقررها عالمنا هذا في إطار ما أسماه بـ "قانون محكم منتظم" أن يكون عدد الفروع أو القرون أو الأذرع في الجفنة الواحدة متناسباً مع عاملين هما: طيب الأرض أو جودتها، وقوة الصنف، فإذا كانت الأرض جيدة والصنف قوياً، ترك لها فروع كثيرة، والعكس صحيح. ويقاس على ذلك في حالة الأرض المتوسطة والأرض الهزيلة.

ولنستمع إليه يحدثنا بلفظه فيقول: "وليكن الشرك في الجفنة من الفروع التي تسمى القرون، ويسميها بعض الفلاحين الأذرع، على مقدار طيب الأرض وقوة الصنف، أعني إن كانت الأرض طيبة، ترك لها فروع كثيرة، وكذلك الفعل بالصنف، أعني إن كان قويا، ترك له مثل ذلك، والضد

على الضد. وعلى هذا القياس يجري الأمر في الأرض المتوسطة، والأرض الهزيلة، أعني أن يحمل كل على ما يليق به ويطابقه"[30].

وإذا كان ابن حجاج قد حدد الموعد المناسب للكسح بالوسط بين طرفين، أي بين التبكير والتأخير كما ذكر آنفا، فإننا نجده في حديثه عن تربية[31] أذرع أو فروع الجفنة يؤكد على اختيار الوسط أيضا.

فلمصلحة المزارع، ولمصلحة الجفنة من جهة ولدفع الضر والآفة عنها من جهة ثانية، يلزم ألا تكون الفروع قائمة جدا، ولا منعكسة جدا مائلة إلى الأرض، بل متوسطة بين هذه الحالة وتلك، وذلك لأن الفروع المنعكسة جدا تكون قريبة من الأرض، مما يعيق خدمة الجفنة والحفر عن أصلها، كما يجعلها معرضة للعفن السريع. وإذا كانت الأذرع قائمة جدا، فإنها ترتفع فوق الجفنة وتعلو عليها، ويتشابك بعضها ببعض، فيقبح منظرها وشكلها.

وإذن، فمن أجل جلب المصلحة، ودفع المضرتين المذكورتين، يجب أن تكون الأذرع بين "القيام والانعكاس".

وها هو عالمنا يحدثنا عن ذلك بقوله: "وليقصد أن تكون تربية الأذرع بين القيام والانعكاس فتكون لا قائمة جدا، ولا منعكسة مائلة إلى الأرض، فإن لهاتين الحالتين – أعني الانعكاس والقيام – آفتين: إن كانت منعكسة جدا، منعت من (اعتمار) الجفنة وحفرها، ولم يصل الحفار إلى أصلها وصولا جيدا، وقربت أيضا من الأرض، فيعرض لها العفن سريعا مع أقل ما ينزل عليها. وإن كانت الأذرع قائمة جدا تعلو على الجفنة، اتصل بعضها ببعض، وتضايقت، وعلا بعضها بعضا، فقبح منظرها وشكلها"[32].

وينبغي النظر إلى حال الجفنة من القوة والضعف، فتكثر الأفرع لها عندما تكون قوية، وإذا كانت ضعيفة ترك لها من الأفرع بالقدر الذي تحتمله. والأمر كذلك بالنسبة لطول القضبان التي تترك في القرون، حيث يتوقف ذلك على "مقدار ذلك الصنف من الأعناب أيضا في قوته وضعفه، أعني إن كان الصنف معهودا بالقوة في الدفع، أطيل فيما يترك من أصول القضبان في القرون ومد. وإن كان من الأصناف التي ليست لها القوة التامة، قصر ذلك ولم يطل. وكذلك الأمر في الجفنة القوية الدفع والضعيفة على هذا الترتيب"[33].

ويقرر ابن حجاج المبدأ التالي: "ينبغي للكساح قبل الكسح أن ينظر حالة الجفنة من الضعف والقوة، فإذا ثبتت تلك الحالة عنده أطال وترك من الأذرع على قدر ما بان له منها"[34].

كما يوصي الكساح بضرورة سعيه إلى جعل قرون الجفنة "في سطح واحد، فلا يكون بعضها أرفع من بعض، وبعضها أخفض من بعض ويسعى في تقسيم الفرج على مقدار واحد، وما يقرب من ذلك. ولا ينبغي أن يربي قرنا في أسفل الجفنة، لأنه أقرب من امتصاص قائمة الجفنة من القرون التي علته، فيكون ذلك سبب ضعفها وإبطالها، وفساد شكلها. ولتكن أعناق الجفان فيها بعض الطول، فهو أحسن لها، وأمكن لحافرها ومعتمرها"[35].

ثم يخلص إلى النتيجة التالية فيقول بلفظه: "اعلم أن المتوسط القوة من القضبان – إذا علمت أنه أقوم من الذراع – كان أولى بالتربية من القوي جدا، إذا كان فيه اعوجاج، فإن كان القضيب ضعيفا، وكان الذراع يتقوم به، وهناك قضيب قوي جدا، غير أنه يعوج به الذراع، كان الأقوى أولى بالتربية من الضعيف. وكذلك إن ألفينا قضيبا ضعيفا تعتدل فروج الجفنة بإبقائه هناك، وآخر قويا غير أنه لا تعتدل به الفرج، كان ذلك القوي أحق بالإبقاء من الضعيف"[36].

لقد كان عالمنا هذا حريصا على أن يبني حكمه في هذه المسألة أو تلك على بيان العلة التي يتأسس عليها هذا الحكم وحيثما يقتضي الأمر ذلك.

فالمتوسط القوة من القضبان إذا كان يتقوم به ذراع الجفنة – أي ساقها – هو أولى ببقائه وتربيته من القوي جدا إذا كان فيه اعوجاج.

وإذا كان هناك قضيب ضعيف يتقوم به ذراع الجفنة وآخر قوي يعوج به الذراع، فالأولى تربية القوي وإزالة الضعيف.

وإذا كان هناك قضيب ضعيف تعتدل به فروج الجفنة وآخر قوي لا تعتدل به، فالقوي أولى بالتربية من الضعيف.

يتعلق الأمر إذن بالعلة التي يتأسس عليها حكم "الشيخ الأجل الفقيه الخطيب الأفضل الإمام أبي عمر أحمد بن حجاج" كما ينعته بذلك ابن العوام في كتابه[37].

فتعديل الفرج يكون كالنافلة، أما تربية القضيب القوي فيكون كالفريضة. ولأنه الحريص على شكل الجفنة أن تكون على مثال أصابع الكف، إذا فتحت وفرج ما بينها، وأقيمت قليلا – كما ذكر سابقا – فإننا نجده يستثني حالة واحدة "الا أن تكون الجفنة يفسد شكلها فسادا كثيرا بإبقاء القوي، فإن الضعيف خير منه"[38].

وما زلنا مع "الشيخ الأجل والفقيه الخطيب" يحدثنا عن أدق التفاصيل المتعلقة بعملية كسح كروم العنب، فيقول: "ومتى خيرت في تربية منعكس إلى أسفل، وفي قرن مستعل وإن اعوج إلى داخل الجفنة، كان المستعلي وإن اعوج إلى داخل الجفنة أولى من المنعكس إلى أسفل"[39].

ولأن تربية القضيب القوي هي الأصل، وبمثابة الفريضة، وتعديل الفرج كالنافلة، فإن ابن حجاج يوصي بتربية القضيب القوي إذا نشأ بين قرنين منفرجين إن كانت الجفنة في قوتها تحتمل ذلك، أما إذا كانت الجفنة ضعيفة قطع أضعف قرن منها ليربي ذلك القضيب القوي.

وقد شاهد بعض من يدعي صناعة الكسح، ويظن أنه مجيد فيها، دون أن يلتزم بالقواعد التي وضعها لمن يزاولون هذه الصناعة، وقدم له النصائح والإرشادات الزراعية، إلا أنه لم ينته عن ذلك، ثم يضيف قائلا: "وتركته وجهله، ولم يلزم الكساحون التربية التي قدمت لك فيه إلا بعد نظر نظروه، فاعتمدوا على ما صار اليوم العمل به"[40].

وإذا كان علماء المدرسة الزراعية الأندلسية قد عولوا على "الإجماع" كعنصر من عناصر منهجيتهم العلمية فإنما كان هذا للاستئناس به؛ إذ لم يمنعهم ذلك من الخروج عليه، مستندين إلى مشاهداتهم وتجاربهم وممارساتهم العملية. فمع إجماع الفلاحين على ألا تسقى نباتات الحمص إذا ظهر فيها الاحتراق، فإن تجارب الحاج الغرناطي – الطغنري – قد كشفت له عكس ذلك؛ إذ يقول وبلغة الضمير المفرد: "فأما أنا فعرضني الاحتراق، فسقيته، فارتفع عنه، وصلح، فاتخذت ذلك ديدنا"[41].

ويذكر ابن حجاج في مقدمة كتابه أنه أثبت فيه ما أتت عليه تجربته في اتخاذ البساتين وغرس الأشجار، وما رأى الحكماء قد أجمعوا على صحته في كتبهم في الفلاحة[42]. وفي موضع آخر في كتابه يقول: "قد أتيت على أحسن ما ذكرته الفلاسفة في الفلاحة وعمارة الأرضين بأوجز قول وأقربه من الصواب"[43].

وحين يتحدث ابن العوام عن تركيب الرمان يقول: "قال ابن حجاج رحمه الله: أجمع أصحاب الفلاحة على أن الرمان يتركب في الرمان فيجود، وقد رأيت ذلك، وعاينته، وكثير من أهل بلادنا ينكره"[44].

وعندما يتحدث ابن العوام عن أنواع الأراضي فإنه يرتبها حسب جودتها أو طيبها، فيقول: "فاخر الأرض بإجماع من حذاق أصحاب الفلاحة، الأرض السوداء ثم الحمراء وأبرد الأرض البيضاء ثم الصفراء"[45].

ويذكر مصادر موسوعته الفلاحية فيقول: "واعتمدت على ما تضمنه كتاب الشيخ الفقيه الإمام أبي عمر بن حجاج رحمه الله، المسمى بالمقنع، وهو الذي ألفه سنة 466 هـ، وهو مبني على آراء أجلة الفلاحين والمتكلمين، نقل فيه نصوص أقوالهم وعزاها إليهم"[46].

ويتابع ذكر مصادره قائلا: "واعتمدت أيضا مع ذلك على ما استحسنته مما تضمنته الكتب المذكورة بعد هذا، منها كتاب الفلاحة النبطية من تأليف قوثامي، وهو مبني على أقوال أجلة الحكماء وغيرهم"[47].

ومن مصادره أيضا كتاب الشيخ أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن بصال الأندلسي رحمه الله، وهو المبني على تجاربه، وكتاب الشيخ الحكيم أبي الخير الإشبيلي رحمه الله، وهو مبني على آراء جماعة من الحكماء والفلاحين، وعلى تجاربه. وما أن ينتهي من ذكر جميع المصادر الأخرى لكتابه حتى يؤكد قائلا: "ولم أثبت فيه شيئا من رأي إلا ما جربته مرارا فصح"[48].

وصحيح أن الإجماع شكل عنصرا من عناصر المنهجية العلمية في أبحاث علماء الفلاحة وتآليفهم في الأندلس، لكن حاكمي العقل والتجربة هما اللذان كان يعول عليهما أولئك العلماء لتأييد صحة هذه المعرفة العلمية أو تلك.

لقد كانت التجربة ديدن ابن بصال – الشيخ الفلاح، الخبير والمجرب، والماهر والبارع في الفلاحة، والعارف بها علما وعملا - [49] حيث يؤكد أهمية الاختبار ودوره قبل الحكم على مدى جودة الأرض أو رداءتها قائلا: "ليس كل أرض يطلق عليها أنها جيدة ولا ردية حتى يعلم ظاهرها وباطنها، لأنه ربما كان وجه الأرض جيدا وأسفلها بخلاف ذلك، أو يكون وجهها رديا وأسفلها بخلاف ذلك". ومن ثم يقرر أن هذا كله يعرف بالاختبار والامتحان، ودوام الحركة بالعمل فيها[50].

وهكذا شهدت الأندلس خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين ظهور مدرسة فلاحية، وكان من أبرز علمائها ابن وافد، وأحمد بن حجاج، وابن بصال، والطغنري، وأبو الخير الإشبيلي، وابن العوام الإشبيلي، وكانت تتم بينهم لقاءات واتصالات سواء أكان ذلك في الحدائق الملكية التي أوكلت مهمة تخطيطها وزراعتها والعناية بها لبعضهم من طرف ملوك الطوائف أم في حقول وبساتين الأندلس، فكانوا يتبادلون خبراتهم ومعارفهم الزراعية.

وتعامل هؤلاء العلماء مع الظواهر والمشكلات الفلاحية على اعتبار أنها ظواهر يمكن موضعتها ودراستها، شأنها في ذلك شأن الظواهر الطبيعية، ومن ثم ربطوا المشكلة أو الظاهرة بأسبابها الطبيعية لا الميتافيزيقية. واستخدموا منهجية علمية تجريبية أدت بهم إلى خصوبة في النتائج، ومن ثم دونوها في مؤلفات جاءت تتسم بنظام تأليفها المحكم، حيث تتسلسل وتترتب الموضوعات على أساسه ترتيبا طبيعيا ومنطقيا.

وإذا كان الفقهاء يؤسسون اجتهاداتهم على قاعدة فقهية

مفادها "جلب المصلحة ودفع المضرة" وأن دفع المفسدة مقدم على جلب المصلحة[51]، فإن ابن حجاج الإشبيلي – الفقيه والخطيب والعالم في الحديث – ينقلها من مجالها الفقهي إلى ميدان الفلاحة، فيوصي باختيار "الوقت الوسط" وهو شهر شباط لكسح كروم العنب لما في ذلك من مصلحة للمزارع ولكرمه، ودفع لمضرة التبكير في الكسح الناتجة عن خطر الجليد والبرد الشديد الذي يضر البراعم المتفتحة، ثم مضرة التأخير في الكسح التي ينجم عنها سيلان الماء من الفروع.

وإذن فالتبكير – كانون الأول وكانون الثاني – والتأخير – آذار – طرفان يمكن أن يتأتى عن كل منهما مضرة، والفضيلة أو الخير – مصلحة المزارع وكرمه – في اختيار الوقت الوسط للكسح.

والقاعدة نفسها يطبقها - الشيخ الأجل، الفقيه الأفضل الإمام[52] – في ممارسته وحديثه عن تربية فروع أو أذرع أو قرون شجرة العنب، حيث يوصي باختيار الوسط بين القيام والانعكاس، فلا تكون الفروع قائمة جدا، أو منعكسة جدا، لأن في الانعكاس الزائد مضرة تتعلق بإعاقة خدمة الشجرة، وتعريضها للعفن السريع، أما مضرة الارتفاع أو القيام الزائد فهي علو الفروع على الشجرة وتشابكها مع بعضها، مما يؤدي إلى قبح في منظرها وشكلها.

والدقة العلمية عند ابن حجاج تجعله يحرص على مراعاة التناسب الذي يجب أن يكون بين الفُرج والقضبان التي تترك لتربيتها في الجفنة. فإذا وجد قضيب ضعيف تعتدل فروج الجفنة بإبقائه وآخر قوي غير أنه لا تعتدل به الفروج كان القضيب القوي أولى بالتربية من القضيب الضعيف، معللا ذلك بقوله: "لأن تعديل الفرج يكون كالنافلة، وتربية القضيب القوي كالفريضة".

إن حديث ابن حجاج عن الوسطية والاعتدال في كسح كروم العنب وتربية الجفنة، وأفضلية إبقاء القضيب القوي وإن كانت الفرج لا تعتدل به، لأنها بمثابة النوافل، والقضبان القوية بمنزلة الفرائض، كل ذلك يدل على أنه إنما يستوحي هذه الأفكار من القرآن الكريم وعلم الفقه وينقلها إلى ميدان الفلاحة.

فيقول الله تعالى: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا"[53]. ويقول تعالى أيضا "ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط"[54].

ولقد ذكرنا في مناسبة سابقة أن ابن العوام يستشهد في مقدمة موسوعته الفلاحية بأحاديث وردت عن الرسول صلى الله عليه وسلم ترغب في الزراعة والغراسة وتحث عليهما.

ويؤكد صاحب المقدمة أهمية فلاحة الأرض على الصعيدين العملي والنظري، فيقول: "ومما يحرض على الزراعة والغراسة ويرغب فيهما، ويبعث على تعلم أصولهما وفروعهما، ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما للزارعين والغارسين من الأجر في ذلك"[55].

كما يستشهد ابن العوام بقول ابن حزم الأندلسي المتعلق "بما يناله أصحاب فلاحة الأرض من الراحة واللذة والسلامة والعز والأجر".[56]

ويشير في المقدمة أيضا إلى بعض الوصايا المتعلقة بإصلاح الضيعة ومنها، أنه قيل لأبي هريرة رضي الله عنه، ما المروءة؟ فقال: "تقوى الله وإصلاح الضيعة".[57]

ومما تجدر ملاحظته أن كتب الفقه جاءت تتضمن مادة غنية تتعلق بالنبات والزراعة والفلاحة. ففي أبواب الصوم معلومات عن عدد من المواد الغذائية، وفي أبواب الحج معلومات قيمة عن عدد من المنتوجات الزراعية المستعملة في الزينة من أصباغ وأدهان. وفي أبواب الزكاة معلومات واسعة عن المنتوجات الزراعية كالحبوب والخضروات والفواكه، وفي أبواب البيع مادة غنية عن أصناف المنتوجات الزراعية، وفي أبواب الإجارات فصول خصصتها هذه الكتب لبيان أحوال العمال في الأرض، وعلاقتهم بالملاكين وأصحاب رؤوس الأموال، وعن المزارعة والمساقاة.[58]

وإذن فليس غريبا أن يكون من بين علماء الفقه والحديث واللغة علماء أولوا جل اهتماماتهم في البحث والتأليف الفلاحي، ومن ثم فالتطور الذي شهده علم الفلاحة مع الأندلسيين لا يكفي تفسيره بالعوامل الطبيعية والمناخية التي اختصت بها الأندلس فقط، فتآليف الأوائل والمحدثين في النبات والأدوية المفردة والفلاحة التي وصلت إلى أيدي الأندلسيين، والتنافس بين قرطبة – عاصمة الدولة الأموية في الأندلس – وبغداد – عاصمة الدولة العباسية- وتشجيع الخلفاء والأمراء للباحثين والمؤلفين ورعايتهم، واستجلاب عيون المؤلفات إلى خزائن قرطبة وتوزعها في سائر المدن الأندلسية، والنزعة النقدية التي ظهرت في الفقه والمنطق ووصلت ذروة عالية عند ابن حزم وتردد صداها في الفلك والنبات والصيدلة والفلاحة وسائر العلوم الأخرى، كل ذلك جعل للفكر العلمي خصوصيته في الأندلس.

والفلاحة لون من ألوان هذا الفكر، ومن ثم فالتطور الذي أصابها إن هو إلا مظهر من مظاهر حركة تجديدية عامة حدثت داخل الثقافة العربية الإسلامية في الأندلس.

فلقد وصلت إلى أيدي الأندلسيين كتب الأوائل في الفلاحة ومن مصادر مختلفة، تجمعها وحدة في الرؤية، ووحدة في المنهج. أما الرؤية فميتافيزيقية سحرية تتمثل في الاعتقاد

بروحانية الأجرام السماوية وألوهيتها وتدبيرها لعوالم ما تحت فلك القمر من جمادات ونباتات وحيوانات، ومسؤوليتها عن الكون والفساد في العالم الأرضي، ونزول الأمطار، ونمو النبات، وتدخلها المباشر في فلاحة الأرض، ومن هنا أتى التقرب إلى تلك الأجرام بمختلف القرابين. وبناء على ذلك جاء أسلوب الفلاحين الأوائل يعتمد التقليد ورواية الأخبار والحكايات البعيدة عن الواقع، وإجماع الفلاحين دون اختبار مدى صدق ما أجمعوا عليه، إضافة إلى بعض الملاحظات الشخصية والتجربة بمعنى الخبرة الحسية لا ممارستها بمفهومها العلمي.

وطبقا لتلك الرؤية والمنهج المؤسس عليها فقد جاءت فنون السحر والطلاسم والخرافات تجد مشروعيتها وتبريرها فتأخذ موقعها في العلم الفلاحي القديم. وبما أن البحث في الفلاحة والتفكير في مسائلها جزء من البنية الفكرية الأندلسية فإننا ننظر إلى العلم الفلاحي كجزء مرتبط بالكل الذي ينتمي إليه، ومن ثم فظاهرة الاختصاص في البحث والتأليف الفلاحي، وغزارة المصنفات الفلاحية ذات الطابع العلمي والعملي لا يتضح تفسيرها إلا من خلال رؤية شمولية وتركيبية تربط الأجزاء بالكل الذي تنتمي إليه.

وإذن فالمدرسة الفلاحية كانت إلى جانبها مدارس فقهية وأدبية ولغوية ونباتية وطبية وفلكية ورياضية وفلسفية.

والنزعة النقدية التي تجلت لدى رواد المدرسة الفلكية أمثال: صاعد والزرقالي[59] والبطروجي هي ذاتها التي تجلت لدى علماء الفقه وعلماء الفلاحة.

والزرقالي هو واضع جداول طليطلة الفلكية المشهورة، ومن كبار راصدي الكواكب والنجوم في عصره – القرن الخامس الهجري – ويعده بييكروسا "أكبر علماء الفلك في العصور الوسطى"[60]. وقد أحدث تعديلا على نظام بطلميوس الفلكي، واستشهد بنتائج دراساته وأبحاثه فيما بعد الفلكي الشهير "كوبرنيك".[61]

ويمتدحه صاعد الأندلسي قائلا انه: "... أبصر أهل زماننا بأرصاد الكواكب وهيئة الأفلاك، وحساب حركاتها، وأعلمهم بعلم الأزياج، واستنباط الآلات النجومية".[62]

كما وضع البطروجي (ت 601 هـ) نظاما فلكيا جديدا مغايرا لنظام بطلميوس القديم، وظل في أوروبا يستقطب أتباعا ومؤيدين ضدا على نظام بطلميوس حتى القرن السادس عشر.[63]

ولقد أطلعتنا مصادر ومراجع هذا البحث على أن ابن بصال كان معاصرا للزرقالي وصاعد وابن حزم.[64]

إنه التصور الواقعي الجديد للكون والطبيعة الذي أخذت العلوم الطبيعية في الأندلس – والفلاحة منها – تتأسس عليه، فأخذ علم الفلاحة يحتل موقعه إلى جانب العلوم الأخرى خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري.

والنزعة النقدية التي كانت ملازمة للرؤية الواقعية لم تمس الفروع المؤلفة في الطب والفلاحة والمنطق والفلك... فقط، بل كانت موجهة أيضا إلى الأصول الأولى التي انحدرت منها تلك الفروع وتأثرت بها أو استندت إليها.

ولقد كان الفقيه والأديب الشاعر أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (ت 456 هـ) من كبار ممثلي النزعة النقدية[65]، ولا يستبعد أن تكون قد جرت اتصالات بينه وبين ابن بصال سواء في قرطبة أو في طليطلة أو في إشبيلية.

وبلا شك فإن النزعة النقدية التي بدأت تظهر في الفقه والأدب والمنطق ووصلت إلى ذروة عالية عند ابن حزم هي ذاتها التي ظهرت في الفلك والفلاحة وسائر العلوم الأخرى، أو ان هذه تلك.

يحدثنا صاعد عن ابن حزم فيقول إنه: "ممن اعتنى بصناعة المنطق خاصة من سائر الفلسفة... وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن، فعني بعلم المنطق وألف فيه كتابا سماه التقريب لحدود المنطق، بسط فيه القول مع تبيين طرق المعارف، واستعمل فيه أمثلة فقهية، وجوامع شرعية، وخالف ارسطو، واضع هذا العلم في بعض أصوله مخالفة من لم يفهم غرضه، ولا ارتاض في كتابه، فكتابه من أجل هذا كثير الغلط بين السقط..."[66]

يتضح إذن نقد الفقيه ابن حزم لمنطق ارسطو إذ "... يخرج على هذا المنطق في بعض المواضع وإن كان يتابعه في كثير من مباحثه، ولم ينظر إليه على أنه قانون معصوم من الخطأ".[67]

وبعد نقده السابق لمنطق ارسطو ووضع كتابه السالف الذكر، عاد إلى علوم الشريعة فأوغل في الاستكثار منها كما يقول صاعد "... حتى نال منها ما لم ينله أحد قط بالأندلس قبله، وصنف فيها مصنفات كثيرة العدد، شريفة المقصد، معظمها في أصول الفقه وفروعه".[68]

ويذكر صاعد أن لأبي محمد بن حزم نصيبا وافرا في علم النحو واللغة، وقسما صالحا من قرض الشعر وصناعة الخطابة. وكتب إلي بخط يده انه ولد سنة أربع وثمانين وثلاثمائة. وتوفي رحمه الله سنة ست وخمسين وأربعمائة.[69]

ومن مؤلفات ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، وقد جاء هذا الكتاب يحوي آراء علمية، ونظريات فلسفية هي في الطبقة الأولى من القيمة الذاتية الحقيقية.[70]

إن النزعة النقدية لدى ابن حزم جعلته يهاجم بشدة أولئك

الذين استعبدت الخرافات عقولهم، وسيطرت عليها كما ساءه كثيرا أن يترك العامة وأشباه العامة الأخذ بالعلم الصحيح وبالعقل، ويتمسكوا بالأوهام والخرافات، فيقول: "زعم قوم أن الفلك والنجوم تعقل، وأنها ترى وتسمع، ولا تذوق ولا تشم... وهذه دعوى بلا برهان".(71)

وهو إذ يوجه ضربته الشديدة إلى تلك الرؤية الميتافيزيقية – الميثولوجية إنما يقدم البديل الواقعي، وهو الرؤية الوضعية التي بدأ الفكر العلمي في الأندلس يؤسس منهجيته عليها، فيقول: "... وبرهان صحة الحكم أن النجوم لا تعقل أصلا هو أن حركتها أبدا على رتيبة واحدة لا تتبدل عنها، وهذه صفة الجماد المدبر الذي لا اختيار له"، ويؤكد أنه "ليس للنجوم تأثير في أعمالنا، ولا لها عقل تدبرنا به، إلا إذا كان المقصود أنها تدبرنا تدبيرا طبيعيا، كتدبير الغذاء لنا، وكتدبير الهواء والماء لنا"، نحو أثرها في المد والجزر، وكتأثير الشمس في الحر، وتصعيد الرطوبات. أما معرفة نظم النجوم في أفلاكها، وآناء ذلك، ومطالعها وأبعادها وارتفاعاتها واختلاف مراكز أفلاكها، فعلم حسن صحيح".(72)

ومما له دلالته هنا أن إبطال التنجيم الذي طالما ظل العلم الفلاحي القديم أسيرا له، وإعادة العلاقة بين الأجرام السماوية وعالم ما تحت فلك القمر بأحيائه وجماداته إلى وضعها الطبيعي إنما يعكس الاتجاه العلمي الصحيح الذي بدأت العلوم الطبيعية في الأندلس تسير فيه.

وما من شك في أن النزعة النقدية التي تجلت في فكر ابن حزم قد شقت طريقها مبكرا لدى الباحثين الفلاحيين في الأندلس، وعلى الخصوص لدى أولئك الذين عاصروا صاحب النزعة – ابن حزم – إضافة إلى إفادة هؤلاء الباحثين من علماء الفلك الذين تجلت في تفكيرهم وكتاباتهم النزعة النقدية لنظام بطلميوس التي توجت بوضع نظام فلكي جديد عند البطروجي.

فحين يحدثنا ابن بصال عن أفضل الأوقات لفتح الآبار فإنه ينطلق من رؤية وضعية للأفلاك مؤكدا على التدبير الطبيعي للشمس المتعلق بتبخير الرطوبات الأرضية مستندا في تفسيره وتعليله إلى ما ذكره الأوائل من أهل الهندسة والمعرفة فيقول: "... ينبغي لمن أراد أن يفتح بئرا أن يترجى ذلك في شهر غشت، والعلة في ذلك ما ذكره الأوائل من أهل الهندسة والمعرفة بهذا المعنى، وهو أن الشمس إذا سامتت الأرض جففت رطوبتها، وانجذبت إلى أسفل... ولا تزال الرطوبة تنتقل كذلك إلى شهر غشت، وهو آخر الحر، يتناهى بعد الماء من وجه الأرض، وهذا معروف بالعيان، موجود بالحس".(73)

وإذا كانت الحواس والمشاهدة العيانية من أدوات المعرفة في نظر ابن بصال فإننا نراه يؤسس تفسيره وتعليله على ما ذكره الأوائل من أهل الهندسة والمعرفة الشيء الذي يعني تأكيده أهمية الرياضيات في البحث العلمي، مستندا إلى رؤية وضعية تجعل تأثير الأفلاك محددا في نطاق تدبيرها الطبيعي للعالم الأرضي من جهة وتنظر إلى المشكلات الفلاحية شأنها شأن الظواهر الطبيعية من جهة ثانية. واستنادا إلى هذه الرؤية الوضعية بنى ابن بصال وسائر علماء الفلاحة في الأندلس منهجيتهم في البحث.

وإذا كان علم الزراعة "... قد نشأ في الشرق مختلطا بالتنجيم..."(74) فإن رواد المدرسة الفلاحية قد تجنبوا "... ذكر الأوهام والخرافات في كتبهم، وتتبعوا الأعمال الزراعية في أراضيهم وأراضي الفلاحين، وعكفوا على التجارب الزراعية في الحدائق والحقول..."(75) وبذلك ارتقى علم الفلاحة على أيدي الأندلسيين على المستويين النظري والتطبيقي، بل إن ابن بصال في كتابه – المبني على تجاربه – استبعد جميع المسائل الثانوية البعيدة عن التطبيقات الزراعية،(76) مما جعل هذا العلم يأخذ موقعه في تصنيف العلوم عند ابن خلدون فيعتبر الفلاحة "... من فروع الطبيعيات، وهي النظر في النبات من حيث تنميته ونشوؤه بالسقي والعلاج، وتعهده بمثل ذلك. وكان للمتقدمين بها عناية كثيرة، وكان النظر فيها عندهم عاما في النبات من جهة غرسه وتنميته، ومن جهة خواصه وروحانيته ومشاكلته لروحانية الكواكب والهياكل المستعمل ذلك كله في باب السحر فعظمت عنايتهم به لأجل ذلك."(77)

وإذا كانت الاعتقادات الميتافيزيقية والممارسات السحرية والحكايات والروايات الأسطورية قد تداخلت مع المادة الفلاحية في مؤلفات الأوائل فإن رواد المدرسة الفلاحية من الفقهاء قد استبعدوا ذلك كله في أبحاثهم وتآليفهم، ومن ثم تميزوا بنزعتهم الانتقادية الانتقائية، الأمر الذي يؤكده ابن حجاج في كتابه فيقول "... وأذكر كل شيء ذكروه في كتبهم في هذا المعنى، أحسنه وأقربه..."(78) ويشير إلى هؤلاء الحكماء الذين نقل عنهم ويصفهم بذوي البصارة والنبل، ويعتبرهم القدوة، ومن سواهم ليسوا بأسوة، ويستبعد آراء أهل الغباوة ولا يركن إلى أقوالهم الساقطة "وإنما يمكن الاستفادة من خدمتهم" فأما العلم "فهم عنه بمعدل، وعن الصواب بمعزل".

إن أهل الغباوة هم الذين يصفهم ابن بصال في كتابه بـ "الضعفاء من أهل الفلاحة" أما الحكماء القدوة فهم أئمة الفلاحين عنده، وهم "الحذاق في الفلاحة"، عند ابن العوام.(79)

النتائج العامة للبحث

في ضوء ما سبق يمكننا استخلاص النتائج التالية:

1. لما كان علماء الفلاحة في الأندلس علماء في الفقه فإننا لا نستبعد وجود مؤلفات في الفقه لهؤلاء العلماء لكنها فقدت إلى جانب كثير من المؤلفات العلمية وخاصة بعد انتهاء الحكم الإسلامي في الأندلس.
2. النزعة النقدية الانتقائية التي عكستها المؤلفات الفلاحية خاصة في الأندلس هي ذاتها التي كانت لدى علمائنا في الفقه والنحو والفيزياء والطب والكيمياء.
3. تطويع المصطلحات الفقهية لتحمل مضامين فلاحية.
4. استخدام علماء الفلاحة أسلوب الحيلة في الزراعة والغراسة وتركيب الأشجار.
5. استبعاد علماء الفلاحة الأخبار والروايات الأسطورية والممارسات السحرية في أبحاثهم وتآليفهم.
6. حرص علماء الفلاحة على التمييز داخل الفلاحة بين الجانب النظري والجانب العملي والتأكيد على الجانب التطبيقي من خلال الاستشهاد بالأحاديث النبوية الشريفة.
7. تمييز علماء الفلاحة في الأندلس بين أهل الغباوة أو الجهلاء أو الضعفاء من أهل الفلاحة من جهة والحذاق والأجلاء وذوي البصارة وهم الأسوة من جهة ثانية، إنما يعكس وعي هؤلاء العلماء بضرورة أن تشتمل مؤلفاتهم على الحقائق العلمية التي يسترشد بها من أراد أن يتخذ هذا العلم صنعة.
8. الموضوعية والأمانة العلمية التي تميز بها علماء المدرسة الفلاحية في الأندلس.

الهوامـش

(1) بييكروسا، علم الفلاحة عند المؤلفين العرب بالأندلس، ص 16-17.
(2) نفس المرجع ونفس الصفحة.
(3) أحمد بن حجاج الإشبيلي، المقنع في الفلاحة، مقدمة تحقيق الكتاب.
(4) ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، الجزء الأول، ص 251، حيث ينقل عن الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام.
(5) عنان، أندلسيات، العربي، الكتاب العشرون، ص 140.
(6) أحمد بن حجاج الإشبيلي، المقنع، مصدر سابق، المقدمة، ص ث.
(7) أبو الخير الإشبيلي، كتاب في الفلاحة.
(8) أبو الخير الإشبيلي، عمدة الطبيب في معرفة النبات، القسمان الأول والثاني.
(9) ابن بصال، مخطوط "القصد والبيان"، رقم 6519، ص 16.
(10) الشوكاني، نيل الأوطار، الجزء السادس، ص 45.
(11) ابن بصال، القصد والبيان، مصدر سابق، ص 80.
(12) نفس المصدر، ص 104.
(13) المصدر السابق، ص 16.
(14) نفس المصدر، ص 15.
(15) نفس المصدر، ص 65.
(16) ابن حجاج، المقنع في الفلاحة، مصدر سابق، ص 14-15.
(17) أبو الخير الإشبيلي، كتاب في الفلاحة، مصدر سابق، ص 155-156.
(18) ابن العوام، كتاب الفلاحة، الجزء الأول، ص 37.
(19) أبو الخير الإشبيلي، كتاب في الفلاحة، مصدر سابق، ص 144.
(20) ابن العوام، كتاب الفلاحة، مصدر سابق، ص 1.
(21) المصدر السابق، ص 3. صحيح مسلم، الجزء الأول، ص 678-679.
(22) ابن حجاج، المقنع في الفلاحة، مصدر سابق، ص 100.
(23) الكسح: التقليم.
(24) المصدر السابق، نفس الصفحة.
(25) نفس المصدر ونفس الصفحة.
(26) خلاف، علم أصول الفقه، الطبعة (11)، ص 64.
(27) ابن حجاج، المقنع في الفلاحة، مصدر سابق، ص 101.
(28) نفس المصدر ونفس الصفحة.
(29) نفس المصدر، ص 101.
(30) المصدر السابق، ص 102.
(31) الحديث هنا يتعلق بتقليم التربية لكروم العنب.
(32) نفس المصدر ونفس الصفحة. نفس مخطوط كتاب المقنع، رقم 69، ص 88. نفس مخطوط كتاب المقنع رقم 6342، ص 49. فقد وردت كلمة (اعتماد) في الكتاب المطبوع؛ بينما وردت (اعتمار) وهي الأصح في المخطوطين المشار إليهما.
(33) ابن حجاج، المقنع في الفلاحة، مصدر سابق، ص 102.
(34) نفس المصدر ونفس الصفحة.
(35) المصدر نفسه، ص 103.
(36) نفس المصدر ونفس الصفحة.
(37) ابن العوام، كتاب الفلاحة، الجزء الأول، مصدر سابق، ص 1.
(38) أحمد بن حجاج، المقنع في الفلاحة، مصدر سابق، ص 103.

(39) نفس المصدر، ص104.
(40) نفس المصدر ونفس الصفحة.
(41) أبو الخير الإشبيلي، كتاب في الفلاحة، مصدر سابق، ص 138، حيث أطلعتنا مصادر البحث على أن جزءا من مادة هذا الكتاب – وبالتحديد الصفحات من 85-192 – منقول من كتاب "زهر البستان ونزهة الأذهان" للطغنري، وقد اتضح لنا من خلال اطلاعنا على ثلاث مخطوطات لهذا الكتاب موجودة في الخزانة الملكية في الرباط أن هناك تشابها بين المادة التي اشتملت عليها الصفحات المذكورة (85-192) ونظيرتها في المخطوطات المشار إليها.
(42) ابن حجاج، المقنع في الفلاحة، مصدر سابق، ص 5.
(43) نفس المصدر، ص 66.
(44) ابن العوام، كتاب الفلاحة، مصدر سابق، ص 417.
(45) المصدر السابق، ص 38.
(46) نفس المصدر، ص 7-8.
(47) نفس المصدر، ص 8-9.
(48) نفس المصدر، ص 9-10.
(49) أبو الخير الإشبيلي، عمدة الطبيب في معرفة النبات، مصدر سابق، ص 461-462، 836-837، حيث ينعت أبو الخير أستاذه ابن بصال بهذه الصفات.
(50) ابن بصال، مخطوط القصد والبيان، مصدر سابق، ص 8.
(51) زيدان، الوجيز في أصول الفقه، الطبعة السابعة، ص 236.
(52) ينعته بذلك أبو الخير الإشبيلي في كتابه "عمدة الطبيب"
(53) البقرة، الآية 143.
(54) الإسراء، الآية 29.
(55) ابن العوام، كتاب الفلاحة، الجزء الأول، مصدر سابق، ص 2-3.
(56) المصدر السابق، ص 5.
(57) نفس المصدر، ص 3.
(58) العلي، إسهامات العرب في علم الفلاحة، ص 539-547، بحث قدمه في الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب المنعقدة في الكويت عام 1983م.
(59) أبو إسحاق الزرقالي.
(60) بيبكروسا، علم الفلاحة عند المؤلفين العرب بالأندلس، مرجع سابق، ص 15.
(61) المرجع السابق، نفس الصفحة.
(62) الأندلسي، طبقات الأمم، ص 117.
(63) الجابري، نحن والتراث، الطبعة الرابعة، ص 178.
(64) أبو الخير الإشبيلي، عمدة الطبيب في معرفة النبات، القسم الأول، مصدر سابق، ص 17.
(65) الجابري، نحن والتراث، مرجع سابق، ص 43، 259، 305.
(66) صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، مصدر سابق، ص 117-118.
(67) النشار، مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي، الطبعة الرابعة، ص 76-77.
(68) صاعد، طبقات الأمم، مصدر سابق، ص 118.
(69) نفس المصدر، ص 119.
(70) فروخ، عبقرية العرب في العلم والفلسفة، الطبعة الثالثة، ص 147.
(71) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، الجزء الخامس، ص 24.
(72) نفس المصدر ونفس الصفحة.
(73) ابن بصال، كتاب الفلاحة، ص 175.
(74) المصدر السابق، ص 30.
(75) الشهابي، تأثير العرب والعربية في الفلاحة الأوروبية، مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء الثاني، المجلد 36، ص183.
(76) ابن بصال، كتاب الفلاحة، مصدر سابق، ص 30. ابن العوام، كتاب الفلاحة، الجزء الأول، مصدر سابق، ص 9.
(77) ابن خلدون، المقدمة، الطبعة الخامسة، ص 494.
(78) ابن حجاج، المقنع، مصدر سابق، ص 5-6.
(79) المصدر السابق، ص 122. ابن العوام، الجزء الأول، ص2.

المصادر والمراجـع

ابن بصال، كتاب الفلاحة، نشر وترجمة وتعليق خوسي مياس بييكروسا ومحمد عزيمان، 1955م، معهد مولاي الحسن – تطوان.

ابن بصال، مخطوط "القصد والبيان" رقم 6519، الخزانة الملكية – الحسنية حاليا – الرباط.

ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، الجزء الخامس، مطبعة محمد علي صبح وأولاده، ميدان الأزهر، مصر، صححه وذيله بهوامش مفيدة عبد الرحمن خليف، 1348 هـ.

ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، 1953م، الجزء الأول، دار المعارف، القاهرة.

ابن العوام (أبو زكريا يحيى بن العوام الإشبيلي)، كتاب الفلاحة الجزء الأول، نشره مع ترجمة إسبانية المستشرق الإسباني بانكيري Josef Antonio Banqueri، 1802، وأعيد تصويره بالأوفسيت مع دراسة وتعليقات في مدريد عام 1988م.

أبو الخير الإشبيلي، عمدة الطبيب في معرفة النبات، تقديم وتحقيق محمد العربي الخطابي، 1990، القسم الأول والقسم الثاني، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط.

أبو الخير الإشبيلي، كتاب في الفلاحة، طبع على نفقة القاضي سيدي التهامي الجعفري، 1358 هـ، فاس.

أحمد بن حجاج الإشبيلي:

مخطوط كتاب المقنع رقم 69 الخزانة الملكية، الرباط

مخطوط كتاب المقنع رقم 6342 الخزانة الملكية، الرباط

أحمد بن حجاج الإشبيلي، المقنع في الفلاحة، تحقيق صلاح جرار وجاسر أبو صفية، تدقيق وإشراف د. عبد العزيز الدوري، 1982م، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، عمان، مقدمة تحقيق الكتاب.

بييكروسا، خوسي مياس، علم الفلاحة عند المؤلفين العرب بالأندلس، تعريب عبد اللطيف الخطيب، 1957م، معهد مولاي الحسن، تطوان.

الجابري، محمد عابد، 1985م، نحن والتراث، الطبعة الرابعة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

خلاف، عبد الوهاب، 1977م، علم أصول الفقه، الطبعة (11)، دار العلم للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت.

زيدان، عبد الكريم، 2000م، الوجيز في أصول الفقه، الطبعة السابعة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

الشوكاني، محمد بن علي، نيل الأوطار، الجزء السادس، دار الجيل، بيروت 1973م.

صاعد بن أحمد الأندلسي، طبقات الأمم، مطبعة السعادة، مصر، بلا تاريخ.

العلي، صالح أحمد، 1983م، إسهامات العرب في علم الفلاحة، بحث قدمه في الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب المنعقدة في الكويت.

عنان، محمد عبد الله، 1988م، أندلسيات، العربي، الكتاب العشرون، الكويت.

فروخ، عمر، 1969م، عبقرية العرب في العلم والفلسفة، الطبعة الثالثة، بيروت.

مسلم، صحيحه، الجزء الأول، دار الكتب العلمية، بيروت.

النشار، علي سامي، 1978م، مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة.

The Impact of Jurisprudence on Andalusian Husbandry Research and Writing

*Mustafa A. Ghnaimat**

ABSTRACT

This piece of research goes beyond the historical view of husbandry science in the Arab-Islamic culture. It actually looks into Andalusian husbandry through its renovation and development.

The aim of this study is to understand the Andalusians’ approach and thinking of their husbandry issues. It also focuses on the epistemic aspect of this science in terms of vision, methodology and intellectual devices on the one hand, and the impact of jurisprudence on this particular kind of science on the other.

The fact that husbandry scientists are simultaneously jurisprudents in Andalusia, allows us to extend links between husbandry and jurisprudence within the Andalusian general intellectual structure, namely in light of the ability reflected in their writings to render Arabic vocabulary obedient to husbandry contents based on a positive vision where their scientific methodology is established. In addition, they have brought in many jurisprudence terms and methods to husbandry research and writing. And this is what this study tries to tackle.

KEYWORDS: Jurisprudence, Husbandry research.

* Faculty of Arts, Al-Isra'a Private University, Amman, Jordan. Received on 5/10/2004 and Accepted for Publication on 7/3/2005.